الدرس الأوّل: مشكلة لا بدّ لها من حلّ!

المقدّمة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد، وعلى آل بيته الطيّبين الطاهرين، اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد وعجّل فرجهم.

حروب، ظلم، قتل، زلازل، براكين، أمراض، أوبئة، مجاعات، أمورٌ كثيرة يجمعها عنوان واحد هو "الشر". هذه الأمور ربّما لا يوجد أحد منّا لم يعشها، بل كلّ البشر جرّبوا هذه الأمور ولكن بدرجات متفاوتة. قد يكون هناك شخص مرّ بتجربة مرض معيّن، ألم معيّن، فَقْد معيّن، وهناك شعوب عاشت حروبًا، وهناك شعوب ما زالت إلى يومنا هذا تعيش في حروبٍ ومجاعاتٍ وأمراضٍ وما شابه ذلك. هذه كلّها أمور يجمعها عنوان واحد نسمّيه "الشرّ". هذه أمور تُسبّب آلامًا للإنسان، تُسبّب أوجاعًا للإنسان، ونعبّر عنها بـ"الشرور".

خطورة مسألة الشرور

تكمن خطورة هذه المسألة في أنّ هذه الأمور يجرّبها ويعيشها كلّ إنسان، فتؤثّر على نفسه، تؤثّر على فكره، تؤثّر على قلبه، وتؤثّر على عمله أيضًا. والكثير من الناس تتغيّر نظرتهم للحياة وتتغيّر نظرتهم للكون بسبب آلام يعيشونها، والكثير من الناس يفقدون الأمل بالحياة بسبب أمثال هذه الأمور. هذه الأمور تؤثّر تأثيرًا كبيرًا، فهي تبدأ بتوليد أسئلة لدى الإنسان: لماذا تحصل هذه الأمور؟ ما هو السبب الذي يجعل هذه الأمور موجودة؟ لماذا ينبغي أن يكون هناك قتل؟ لماذا ينبغي أن يكون هناك ظلم؟ لماذا ينبغي أن يكون هناك أمراض؟ لماذا ينبغي أن يكون هناك مجاعات؟ لماذا ينبغي أن يكون هناك فقر؟ وغيرها العشرات بل المئات بل الآلاف من الأمور التي دائمًا تواجهها البشريّة، فتوجِد أسئلة كثيرة في ذهن الإنسان.

والأمر نفسه بالنسبة للمجتمعات، فإنّ أيّ مجتمع يعيش حالة من هذه الحالات، وأيّ مجتمع يصاب بزلزالٍ يؤدّي إلى قتل كثيرٍ من الأشخاص، وأيّ مجتمع يواجه حربًا، وأيّ مجتمع يواجه ظلمًا وقتلًا، تتولّد في أذهان أفراده أسئلة من قبيل: لماذا تحدث هذه الأمور معنا؟ ما هو السبب الذي يجعل هذه الأمور تحصل؟

إذن، هذه المسألة لها تأثيرها على المستوى الفردي، ولها تأثيرها على المستوى الاجتماعي، فعلى مستوى الفرد لا يوجد إنسان لم يواجه هذه الأمور، على مستوى المجتمع لا يوجد مجتمع لم يواجه هذه الأمور، فهناك أسئلة تخطر في ذهن الفرد وهناك أسئلة تنتشر في المجتمع وتحتاج إلى إجابة: لماذا تحصل الشرور؟ ما هو سبب تحقّق هذه الأمور؟

ويزداد الأمر خطورةً حينما يكون الإنسان أو المجتمع مُوحِّدًا مؤمنًا بوجود إله، وهذا الإله له صفات هي: الرحمة، الحب، الجمال، الخير. فالمجتمعات المؤمنة والموحِّدة تؤمن بوجود إله هو عين الحب وعين الخير وعين الكمال والجمال والحكمة، فعندما يواجه أحد هذه المجتمعات أمثال هذه الأمور، تنتشر فيه أسئلة من قبيل: أيعقل من ذلك الإله الخيِّر الجميل الحكيم المحبّ للبشر أن يدع البشريّة تعيش أمثال هذه الأمور؟ هل هذا يتناسب مع خيره وحبّه وجماله وحكمته أم لا؟ وإنّ كثيرًا من الأشخاص الذي تزلزل إيمانهم كان السبب في تزلزل هذا الإيمان هو أنّهم عاشوا حالات من الشرور، فهم تعرّضوا لظلمٍ، أو مأساة، أو واجهوا مرضًا، أو كارثةً طبيعيّةً، فانفعلت نفوسهم، ولم تستطع نفوسهم أن تجمع بين فكرة العيش في هذه المأساة وبين فكرة وجود إله رحيمٍ محبٍّ خيّر جميل، فأصابهم ما يُسمّى "الإلحاد الانفعالي"، وتوجّهوا نحو الإلحاد بسبب هذه الأمور. فنجد هؤلاء الأشخاص يقولون: كيف تقول لنا الأديان إنّ هناك مثل هذا الإله بهذه الصفات، ثمّ لاحقًا أجد نفسي أتعرّض للظّلم، ولا أجد ذلك الإله يدافع عنّي. أو مثلًا: يحصل زلزال فيموت أقاربي، أصاب بمرض فأعاني وأتألم، ولا أجد أثرًا لذلك الإله! إذن، من المؤكّد أنّ هذا الإله ليس موجودًا.

كما أنّ هناك أناسًا آخرين لم يتوجّهوا نحو الإلحاد، ولكنّهم فقدوا حسن الظنّ بالله وفقدوا النظرة الجميلة تجاه ذلك الإله. هؤلاء بقوا مؤمنين بأنّ ذلك الإله موجود، ولكنّ نظرتهم إليه تغيّرت بعد مواجهتهم هذه الشرور. وهناك أناس فقدوا الأمل بهذه الحياة لأنّهم يعيشون في مأساة، حتّى وإن كانوا يحملون أفكارًا من قبيل أنّه: حتمًا يوجد خير في هذه الأمور، وحتمًا توجد مصلحة في هذه الأمور، وحتمًا الله ناظر إلى هذه الأمور، ولكن تجدهم على المستوى العملي قد فقدوا الأمل، أو على المستوى القلبي قد تأذّت قلوبهم، ولم يعد لديهم القدرة على أن يتفاعلوا إيجابيًا مع هذه الأمور. نعم، من الممكن أن تجد الإنسان صابرًا، وكما نعبّر "يعضّ على الجرح"، ولكنّه فيه قرارة نفسه لا يشعر بالرضا، ليس راضيًا في قرارة نفسه، لأنّه يرى أنّه يتألّم، فكيف سيتألّم ويكون في الوقت نفس راضيًا؟! هذه مسألة الشرور من أعقد المسائل التي تواجه الفرد، والتي تواجه أحيانًا مجتمعات بتمامها، فنجد مجتمعًا كاملًا ينتشر فيه سؤال أساسي: لماذا يحصل معنا هذا الأمر؟ أو نجد فردًا يصاب بمرض، فيسأل: لماذا يحصل معي هذا الأمر؟

أبعاد مسألة الشرور

مسألة الشرور مسألة خطيرة جدًّا، وينبغي أن تُبحث في بُعدين: البُعد الأول بُعد نظري، البُعد الثاني بُعد عملي.

في البعد النظري يجب أن نجيب عن هذا السؤال، الذي إن لم نُجب عنه فسوف نبقى دائمًا في حالة اضطراب وعدم طمأنينة، وسوف يؤدّي هذا الأمر إلى شبهات فكريّة قد تؤثّر على اعتقاداتنا وعلى نظرتنا إلى الكون. والسؤال هو: ما هي حكمة وفلسفة وسبب حصول هذه الشرور؟ لماذا تحصل هذه الشرور؟ هل تنسجم هذه الشرور مع وجود إله ومبدأ لهذا العالم له صفات الحبّ والرحمة والحكمة والخير والجمال أم لا؟ وهنا يجب أن نلتفت إلى أنّ هذا السؤال ليس مجرّد سؤال نظري لا قيمة له، بحيث نقول: لا بأس بأن نبحثه ولكنّه ليس مهمًّا. كلّا، هذا البحث ليس بحثًا لا قيمة له. أحيانًا، تكون هناك مباحث نظريّة جميلة ولا بأس بطرحها والحديث عنها، ولكن ليس لها

قيمة رفيعة، ولكنّ البحث الذي نتكلّم عنه ليس كذلك، وهو صحيح أنّه بحث نظري وفكري، ولكنّه يؤثّر على نظرة الإنسان إلى الله وإلى الكون وإلى نفسه، بل يؤثّر على عمله أيضًا، وعلى حالاته القلبيّة، وعلى الأمور التي يعيشها في قلبه، وعلى حزنه وفرحه ولذّته وألمه ورضاه وسخطه وكلّ هذه الأمور. هو سؤال نظري، ولكنّه يؤثّر على كلّ كيان الإنسان، يؤثّر على اعتقاداته وقلبه وعمله. هذا هو البُعد النظري من البحث.

البُعد الثاني هو البُعد العملي، فبعد أن عالجنا السؤال النظري، يُطرح سؤال آخر مفاده: كيف ينبغي عليّ أن أتصرّف على المستوى العملي في مقابل الشرور والبلاءات والصعاب والآلام التي أواجهها؟

وهنا المراد من المستوى العملي ما يشمل الجوانح والجوارح، أي: العملي القلبي والعملي الخارجي، العملي الباطني والعملي الظاهري، فعلى المستوى القلبي والمشاعري كيف ينبغي أن أوجّه هذه المشاعر؟ وعلى المستوى الظاهري والخارجي كيف ينبغي لي أن أتصرّف؟

تاريخ مسألة الشرور

مسألة الشرور من أقدم المسائل التي خطرت في أذهان البشر وشغلت بالهم. فإنّ البشر دائمًا، ومن لحظة مجيئهم إلى هذا العالم، وهم يواجهون نوعَين من الظواهر ونوعَين من الأمور: أمور تسبّب لهم لذة وسعادة وأمور تسبّب لهم ألمًا وشقاءً. ونحن نعرف نفوس البشر، فهي تميل نحو اللذة والسعادة، واللذة والسعادة تتناسب معها، فمن الطبيعي أن لا تنشغل أذهانهم بالسؤال عن سبب ظهور هذه الأمور الخَيّرة والجميلة. ولكن حينما يصل الأمر إلى الأمور التي تسبّب ألمًا وشقاء، تتوقّف البشريّة وتسأل سؤالًا بدأ مع أوّل مواجهةٍ لهذه الأمور وما زال مطروحًا وسوف يبقى، ومفاد هذا السؤال: إنّنا بطبيعتنا نستلذّ بالأمور الجميلة والخَيّرة فلا نسأل عنها، ولكن ماذا عن الأمور التي تسبّب لنا الألم؟! لماذا تحصل معنا؟!

الشرور والتيّار الطبيعي

مسألة الشرور من أقدم المسائل، وليس هذا فحسب، بل هي أيضًا من أخطر المسائل على الإطلاق، لما ذكرناه سابقًا من أنّ مسألة الشرور من شأنها أن تُغيّر كلّ معتقدات الإنسان، وأن تنقل الإنسان من دفّة الإيمان إلى دفّة الإلحاد، وقد أشرنا إلى الإلحاد الانفعالي الذي ينشأ من هذه الشرور والمآسي والصعاب. فالبعض إذا واجه هذه الشرور يجد أنّ من الأفضل له أن يتّجه نحو التفسير الطبيعي لهذا العالم، وأن يصبح ملحدًا يعتقد بأنّ كلّ هذه الظواهر التي تحصل تابعة للطبيعة. ومنذ قديم الزمان إلى يومنا هذا هناك تيّار إلحادي يؤمن بالطبيعة بوصفها السبب في كلّ الظواهر، سواء الجميلة أو غير الجميلة، وسواء الخيرات التي تمنحنا لذّة أو الشرور التي تسبّب ألمًا، فكلّها

تابعة للطبيعة ولا يوجد وراءها مدبّر حكيم حتّى آتي وأسأل: هل هذا يتناسب مع حكمته أم لا؟ التيار الطبيعي يأتي ويقول: أنا لا أُتعب نفسي بهذه الأمور، فكلّ ذلك تابع للطبيعة.

الشرور والاعتقاد بالثنويّة

ومن التيّارات التي راجت وظهرت عند بعض الأقوام والأمم بسبب مشكلة الشرور هو الاعتقاد المسمّى بـ"الاعتقاد بالثنويّة"، ومعناه أنّه يوجد في هذا العالم إلهان: إله خيرٍ بسببه تظهر الأمور الخيّرة من نعيم وغنى وأموال وأمطار وما شابه ذلك، وإله آخر هو إله شرّ يمثّل مصدر ومبدأ الشرور من فقر وظلم وقتل وزلازل وبراكين وما شابه ذلك.

ولعلّكم سمعتم باعتقادات الديانة "الزراداشتيّة" من أنّه يوجد إله اسمه "أهورامازدا"، هذا الإله هو الإله الأساسي هو مبدأ هذا العالم، ولكنّ هذا الإله قد خلق مخلوقًا اسمه "أهريمن"، والذي تمرّد على الإله الأساسي "أهورامازدا" وبدأت تصدر منه شرورًا، أمّا "أهورامازدا" الإله الأساسي فهو لا يصدر منه إلّا خير، فصار لدينا إلهان: إله خير هو "أهورامازدا" وإله شرّ هو "أهريمن". لماذا توجّهوا نحو هذا الاعتقاد؟ لأنّ هذه الشعوب وهذه الأقوام ترى أنّ هناك ظواهر خير وظواهر شر، ومن الطبيعي أن لا يكون منشأ ظواهر الشرّ هو ذلك الإله الموصوف بأنّه رحيم ومحب وجميل وخَيِّر، فلا بدّ أن نفرض إلهًا آخر يكون مصدر هذه الشرور.

سؤال ينبغي أن نجيب عنه

ولكنّنا الآن نسأل: وفقًا لاعتقادنا التوحيدي بموجود إله واحد خالق لكلّ شيء، له صفات الحبّ والرحمة والجمال والخير، هل يمكن أن تصدر الشرور من ذلك الإله أم لا؟ بعبارة أخرى: كيف تجتمع مسألة الشرور مع وجود الإله الواحد بالصفات التي نؤمن بها؟